فتحى الإبيارى

طيف لا يغيب
فى قلب الحبيب
المصطفى
صلى الله عليه وسلم



• إلى كل أبناء هذا الجيل وإلى أولادى حسن وأمانى ومحمد وآيات وإلى أحفادى عمر وأحمد ونور داعيا الله أن يكون القرآن الكريم لكم دستورا، وسيرة الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ نورا وهداية لكم فى طريق الحياة..

ولكم فى رسول الله أسوة حسنة.

فتحى الإبيارى

يا حبيب الرحمن ، وشفيعنا يوم القيامة والفرقان

يا قدوة لكل البشر أجمعين

وصدق من قال : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة "

ياحبيبى يارسول الله ..

والإنسان فى هذه الحياة الصحراوية .. كالتائه فى حاجه إلى من يروى عطشه ..

ولا نبع له فى هذا الوجود ليرتوى منه

إلا نبع الحب ..

القرآن الكريم .. ومحمد ﷺ .

يا يتيما ضم للصدر إليه كل أبناء الحياة

يا معزا للحيارى .. يا مذلا للطغاة ..

يا محيلا ل صحراء على الأرض ، وفى النفس بساتين صلاة ..

يا محمد .. يا محمد .. يا محمد ..

جل من سواه نورا هاديا للبشرية ..

هو فى الجسم بشر ، وهو نور فى البصيرة والبصر ..

ذكره فوق جبين الدهر هالة

ياصلاة الله الحى المصطفى الهادى وآله ..

*

يانبى الرحمة ..

يامحمد ..

يانبع الحب فى حياتنا الصحراوية

نرتشف منك رحيق الحياة لمواصلة الحياة

يامحمد ﷺ ..

ياشفيعنا يوم الدين والفرقان ..

يارحمة مهداة ..

من رب الكون والحياة ..

يامحمد ..

عليك أفضل الصلوات ، وأزكى السلام

ياخير الأنام ..

يامحمد ﷺ

*

لقد أكرمنى الله سبحانه وتعالى ، برسالة معينة ، وأنا جالس أمام الكعبة .. فى عام ١٩٨٠ بين صلاة العصر والمغرب .. أن ألقى الأضواء على ما كتب عن الرسول الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ . وأكرمنى الله سبحانه وتعالى .. وجمعت ما يقرب من خمسمائة كتاب من أنحاء العالم . ثم أكرمنى الله ، وتم تقديم مسلسل " المحمديات " فى البرنامج العام بالإذاعة المصرية .. وهو مرحلة من الكتاب والمفكرين ، والأدباء والباحثين فى أنحاء العالم ، ورؤى جديدة فى السيرة العطرة عن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه افضل الصلاة وأزكى السلام . منذ عام ١٩٩٣ حتى عام ١٩٩٧ . وأذاعته الإذاعات العربية طوال شهر رمضان المبارك مايقرب من مائة وخمسين حلقة ، وطبع منها ستة أجزاء فى هيئة الكتاب ، وجارى إصدار بقية الأجزاء .

ثم أكرمنى الله أيضا فى إعداد " الموسوعة المحمدية ، بإذاعة الشرق الأوسط ، فى مسلسل يومى يذاع فى فترة الفجر منذ عام ٢٠٠٣ حتى الآن بعون من الله سبحانه وتعالى . وهى رؤية علمية معاصرة لأحداث سيرة نبع الحب فى الوجود سيدنا محمد ﷺ . .. وتصحيح ما رواه المؤرخون ، وبمواجهة مؤامرات اليهود والمنافقين والموتورين عبر التاريخ ..

وفى خلال تلك الرحلة المحمدية ، توقفت عن لحظة معينة جعلت الدموع تنهمر من عينى .. ولم يتناولها أحد من المؤرخين القدامى إبتداء من سيرة إبن هشام . ومروا عليها مر الكرام فى سطر أو سطرين .

وهذه اللحظة الهامة جدا .. هى لحظة اليتيم محمد ﷺ وهو فى السادسة من عمره ، وهو يشاهد وفاة أمه الطاهرة آمنة ، ومعه بركة أم أيمن . ويساعدها فى دفن أمه فى بقعة إسمها " الأبواء" بالقرب من مكة ،

بعد أن ذهب مع أمه إلى المدينة لزيارة قبر أبيه عبد الله ، الذى لم يره وقد مات عند أخواله بنى النجار فى المدينة . فقد اشتاقت آمنة إلى زيارة حبيبها وعريسها عبد الله الذى مات شابا بعد أشهر قليلة من زواجهما . ووقف محمد ﷺ مع أمه ، وأخواله عند قبر أبيه .. تغسلهم الدموع .

لقد مر اليتيم محمد ﷺ .. وهو فى السادسة من عمره ، فى بحر اليتم والآلام ، والأحزان .. وقمة آلامه وهو يحتضن أمه وهى تحتضر ، متعلقا بها لكى تأخذه معها إلى عالم الخلود .. ولمن ستتركه وحيدا ، يتيما ، متعطشا للحنان ، والحب ، والعطف . والمودة ، ودفء الحنان .

وحاولت كتابة هذه اللحظات الهامة فى حياة اليتيم الخالد فى كتاب " طيف لايغيب فى حياة الحبيب المصطفى ﷺ . وكان ذلك عام ١٩٩٧ . ولم يأذن الله لى ، إلى أن أكرمنى وبدأت فى الكتابة فى عيد الأضحى المبارك فى عام ٢٠٠٧ . ليكون هذا الكتاب بلسما ، ولمسة حنان ودفء لكل اليتامى فى العالم ، ولكم فى رسول الله أسوة حسنة .

ومرحلة اليتم التى مر بها محمد ﷺ لحكمة إلهية ، فقد كان الله سبحانه وتعالى قد اصطفاه ليكون رحمة للعالمين ، وهدى للبشرية جمعاء إلى طريق الواحد الأحد ، الرحيم الرحمن ، الغفور ، الوهاب . وبحر الآلام واليتم الذى غسله فيه الواحد الأحد ، حتى يكون قدوة للعالمين ، وجعله يحس بالفقر ، والحرمان ، والجوع ، ليشعر بآلام الآخرين ، الذين أحاطوا به بكل حب وإيمان فى أيام الدعوة الأولى ، وكم تعبوا ، وتألموا ، من أجل الواحد الأحد ، وكان الرسول الحبيب المصطفى ﷺ .. وهو يتألم ، ويرى تعذيبهم ويقول " صبرا آل ياسر ، موعدكم الجنة " .

وفـى سـهولة ويسر ، كـان الله سبحانه وتعـالى ، يمكنـه أن يجعلـه أغنـى أغنيـاء الـدنيا ، وأن يجعـل النـاس تلتـف حولـه ، وتـؤمن بالرسـالة بسـهولة ، دون تعذيب أو آلام ، ولكن حكمـة الله سبحانه وتعالى ، أرادت أن يكـون الرسـول ﷺ يتيمـا ، فقيـرا ، ملازمـا للأحـزان ، والآلام ، لتـزداد قوتـه فى تبليغ الرسالة ليس لقومه فقط كما حدث مع كل الأنبياء والرسل من قبله ، ولكن لكى تكون الرسالة المحمدية لكل البشر أجمعين فى العالم أجمـع مـن أقصـى الصين واليابـان وروسيا إلـى كل بقعـة فـى الأرض ، عن إيمـان عميق راسخ فى القلوب ، والعقول ، والدفاع عن هذا الإيمان العميق ، بكل شئ حتى الروح . وهذا هو سر خلود الرسالة المحمدية طوال القرون حتـى نـهاية العالم .

كل شئ فى هذا الوجود يشدو ..

يامحمد ..

وينادى فى حنان ..

يامحمد ..

أنت فى الشرق بقاء وخلود
أنت فى الكون وجود للوجود
ياحبيب الرحمن ..
ياسيد الخلق والأنام ، وشفيعنا يوم القيامة والفرقان
يامن اختارك الله سبحانه وتعالى من جوف الصحراء ..
لحكمة بالغة ..
واصطفاك من بيئة الأصنام ، لتكون هاديا للبشرية جمعاء ..

هو فى الجسم بشر ، وهو نور فى البصيرة والبصر ،
جل من سواه نورا هاديا للبشرية
ذكره فوق جبين الدهر هالة

ياصلاة الله الحى المصطفى الهادى وآله .

فتحى الإبيارى

محمد ﷺ الذى ولد فى الشقاء

عندما عاد محمد اليتيم ﷺ إلى حضن أمه آمنة الحقيقية ، وليس حضن حليمة التى أرضعته طوال عدة سنوات حتى بلغ السادسة من عمره ، وقد عاش محمد طفولته الأولى مع حليمة مرضعته وزوجها الحارث فى بادية الطائف حيث منازل بنى سعد ، وقد ودع أخته الشيماء فى الرضاعة ، وكذلك عبد الله أخاه فى الرضاعة ..

واشتاقت آمنة إلى زيارة قبر زوجها عبد الله ، الذى لم ير محمدا ، فقد مات ومحمد كان جنينا فى بطنها . وقررت آمنة أن تذهب إلى المدينة عند أخواله بنى النجار . وطلبت من حاضنته أم أيمن أو بركة الإستعداد للسفر إلى المدينة .

كان بنو النجار قوما ذوى يسار ومنعة ، وذهبت إليهم آمنة وابنها محمد وجاريته بركة أو أم أيمن . ولم يكن الصبى اليتيم يدرى ماذا يرى من أبيه .؟ ترابا ورملا أوحجرا ..؟ ولكنه كان مسوقا إلى المدينة .. التى آوته فيما بعد ونصرته نصرا عز به الإسلام إلى يوم يبعثون .

وذهب محمد ﷺ ومعه أمه آمنة وحاضنته بركة أم أيمن ، والنابغة بن النجار إلى قبر عبد الله. وأشفق النجار على الصغير من نكد الموقف ، ولكنه لم يستطع أن يضن عليه بنظرة لم يلقها أبدا على أبيه حيا ، وهو يود أن يلقيها عليه ميتا . فصحبه وأمه وجاريته ونساء ورجالا إلى قبر عبد الله – وكان فى زاوية من الدار –

سارت آمنة إلى القبر ووقفت أمامه ، فطافت بها ذكريات هذا الفقير الحبيب .. العريس الذى مات فى ربيع شبابه ، وذاقت الترمل وهى فى عنفوان شبابها ، فأصيبت بجرحين كبيرين : جرح موت زوجها الجميل الحبيب . وجرح الترمل المبكر. وعادت بها الذاكرة إلى هذا الجنين الذى كان وهو فى عالم الغيب ، ثم ما أن بعث العزاء فى قلبها بمولده وجماله ، وحسن طالعه حتى فارقته سنين خمسا عندما ذهب إلى الطائف مع حليمة كعادة العرب ، لم تسعد فيها بما تسعد به الأم من صحبة وليدها ، ووحيدها .

ثم هى تنظر إلى مستقبله ، فتملأ نظرتها الآلام والدموع .. وهو سوف يعيش يتيما .. فقيرا ، لاحول له ولا قوة .. !!

وكم كانت ترجو لو أن الراقد إلى الأبد – فى هذا القبر الصامت الذى لا يستطيع لها ولا لولدها إسعادا كان حيا. فلقد كان يملأ إذن حياتها بهجة ونعيما ، وكان يحمى وليدها من ذل الفقر واليتم ، ويأخذ بيده إلى مستقبل مشرق .

لكنها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى ، ليكون هذا اليتيم أسوة لكل البشر ، ورحمة للعالمين ، وهداية البشر أجمعين بالملايين .. الملايين .. إلى رب العالمين .. الواحد الأحد .

ولم تدر آمنة أنها حملت فى بطنها نور الدنيا للبشر أجمعين ، وأنها كانت أما لنبع الحب الذى ارتوى منه كل البشر الحب لله .. رب الحب .. الذى يوصل البشر إلى النعيم الخالد حيث جنات الله لمن تبع محمد ، ورسالته الإلهية .

ولكنهـا حكمـة الله ، ومشيئته .. أن تكـون آمنـة تلـك الأم البائسـة ، الحزينة ، وأن تقف على قبر زوجها الحبيب .. والدموع تنهمر من عينيها كالنهر ، ويتمزق قلبها حزنا ، وتنفطر نفسها حسرات وألما . ولكنها كانت حكمـة الله التـى تعجـز عقولنـا عن إدراكهـا ، لأنهـا سـر مـن أسـرار الكـون المغلق أمام فهمنا ..!!

وقف محمد ﷺ على قبر أبيـه ينظر بعينيـه فلا يـرى إلا حجرا ورمـلا وترابا .. ولعله قد سأل نفسه : أين أبى ..

بل أين الآباء جميعا ..؟

أهو وهم جميعا إلى حفرة صغيرة كهذه ؟؟

أهو وهم إلى تراب ..؟

أين القوة التى يشمخ بها الرجال ؟ أين المتعة ؟ أيـن العظمـة ، أيـن المجد ؟ أين المال ؟ ..

إلى تراب ..؟

كل هذا .. إلى تراب ..؟

إن عينيه لم تكتحل بمرأى أبيه ، ولا أحس بيده تهدهد على كتفـه أو فوق جبينـه . إنـه يحس اليتم لأنـه لـم يـر أبـاه . وهو قد عـاش يتخيـل الحنـان تخـيلا .. ويتصـورالعطف تصـورا ، ويسـمع عـن الآبـاء وحـب الآبـاء . ولا يذوق من هذا الحب طعما ، ولا يرى منه طيف جمـال.. وهو يسمع بـالموت

.. ولكنه لم يفهم الموت بعد .. إنـه يتمزق حزنـا .. ومحزون .. محزون .. حائر .. لايعرف خلاصا ..!!

إنـه ليذوق من الآلام كأضعف النـاس حالا لكى يستطيع أن يعبر عن أعظم العواطف البشرية ..

إنـه ليولد فى الشقاء ، ويحرم مما لايحرم منـه أوسـاط النـاس ليكون شقاؤه سبيلا إلى إسعاد الإنسانية ..!!

إن امتحـان ربـه .. إمتحـان بـدأ منـذ الـولادة .. وظـل يقاسيه حتـى استوى بشرا كاملا .. وإنسانا مثاليا صالحا جديرا بحمل كلمات الله المرسلة إلى الحياة وأهل الحياة . حتى إذا ما حملها جعله الله يقاسى الكفاح والجهاد . ولـو أراد لهـدى النـاس أجمعين . ولكنهـا الحكمـة الإلهيـة .. يختـار للنـاس رسولا من أنفسهم . يحس كما يحسون ، ويتألم كما يتألمون ، ويعذب كما يعذبون ، ويضحى كمـا يجـب أن يضحوا ، ويجـوع ويعطـش ، ويفشـل وينجح ، لتكون إرادة الله هى الكبرى .. وقدرته فوق كل قدرة .

وعـاد المركـب البـاكى بعـد أن رطبـوا الثـرى الكـريم بمـاء دافـق ، ورطبوا ذكرى صاحب القبر بدمع من صادق العاطفة المرهفة .

رجع محمد الصبى إلى الدار حزينا، مطرق الرأس ، فقد كان بخياله أن يرى من أبيه شيئا ، فلم ير شيئا .. وإنما رأى ترابا وسمع صمتا .

كان محمد الصبى ﷺ يظن أنه سيلاقى أباه ، ويشعر بـدفء عطفـه ، وينعم بطيب حديثه ، ورقيق حنانه ، فإذا به حينما ألقى بصره رأى عدما .

فكان من مواقف الهم له فى الدنيا .. هذا الموقف العصيب موقف الشوق وجزعه ، وصمته وتجلده .. فنادى النابغة أبناءه وأبناء اخوته وأعمامه الذين يقاربون محمدا فى العمر أو يكبرونه قليلا ، وقال لهم :

- يا أبنائى .. هذا هو محمد .. ضيفكم .. فضموه إليكم ، إنه نسيبكم وإبن أختكم ، وحق عليكم أن تكرموه وتحيطوه بحبكم .. واقترح عليكم أن تأخذوه إلى البئر .. فعلموه السباحة فإن أبناء مكة لا يعرفون العوم ..

وسر الأولاد وهللوا ، وأحاطوا بمحمد وأخذوه فى فرح وضجة إلى البئر على مقربة من الدار . وسرى عن محمد واندمج صباه فى صبا رفقائه . وأخذوا يدربونه على العوم حتى إذا ما فرغوا من لعبهم ، وأجهدهم العوم ، إندفعوا إلى الدار حيث أعد لهم أطيب الطعام ، فأكلوا وعادوا إلى ألعابهم .

وذات يوم خرج الصبى محمد مع أصدقائه إلى حيث كان الصبيان الكبار قد خرجوا يلعبون ، فمنهم من كان يركب الخيل ويتبارى بها ومعهم من كان يتدرب على قذف السهم بالقوس ، ومنهم من كان يحاول تعلم الصيد .

ووقف محمد ﷺ فى وسط جماعة يمسكون بعشرات الطيور يربطونها بحبال ، ويطيرونها ثم يجذبونها ، ثم يطيرونها فإذا حلقت وحسبت أنها ملكت الفضاء بأعناقها وصدورها ، وضربت الهواء كعادتها بأجنحتها جذبها الصبيان ، فانحطت إلى الأرض حزينة ، كسيرة الفؤاد ، دامية السيقان .

ورق قلب محمد ﷺ اليتيم للطير الأسير .

وتشابه فى عين محمد حرمانه وحرمان الطيور من أوكارها وأمهاتها ومن حرية الهواء والفضاء .

فتقدم محمد ﷺ إلى الصبية فى هدوء ورقة وقال :

- هل أدلكم على طريقة اللعب بالطير .. تعلمتها فى الطائف ..؟

وصرخوا جميعا :

- ماذا كنتم تصنعون ..؟

قال محمد : كنا نصيد الطيور من أوكارها ، ثم نسقيها الماء ونطعمها الحب ونطيرها ، ونستمتع بطيراها ، ثم نضع لها الحب ، فتعود فى الغد تلتقط الحب ، ونمسكها ثم نطيرها . فكانت تأنس لنا ، وتهبط .. وتطير فوق رؤوسنا .. ونغنى لها .

وهلل الصبيان للفكرة ، وتدافعوا إلى جلب الماء والحب للطيرو وأخذوا يسقونها ويطعمونها ، ثم يرتفعون بها على تل ويطيرونها ويهللون ، ويصفقون ، ويضحكون والطير يندفع إلى الهواء ، إلى الحرية .. بعد الأسر وعذاب الأسر . والقى الصبيان بالحب فإذا زرافات من الطيور تهبط إلى الحب تلتقطه ، ثم تأمن بقاءها بجوار هؤلاء الصبية العابثين .. ثم تطير .. وغمرت النشوة قلوب الصبية .. وذاق محمد حلاوة هذا العمل الصالح الجميل .. وعادت الطمأنينة إلى قلبه .

وذات ليلة قالت أم أيمن لسيدتها آمنة :

- لقد طالت غيبتنا ، وطال مكثنا .. أليس لنا من رحيل وعودة ..

وردت آمنة :

- أجل يابركة .. سنرحل .. وكفى ما قضينا من وقت .. سنستأذن غدا فى الرحيل .

وفى الصباح كانت النفوس قد هدأت من أفراحها ، بعد عودة قافلة التجارة ، وما كان من يأسهم من رجوع القافلة ، وضياع أملهم فى أموالهم ، وتذكروا أنهم كانوا متعلقين بأمل واحد هو التيمن بوجه الصبى محمد الجميل الذكى، الوافد عليهم بلا ميعاد كأنه بشير القدر ، فتوافدوا على محمد يضمونه ويقبلونه ويعترفون له بالفضل .

وكانت مفاجأة من آمنة إذ استأذنت فى الرحيل ، وحاول الرجال والنساء أن يؤخروها لأيام .. عندما تخرج قافلة صغيرة ذاهبة إلى مكة ، ووافقت آمنة على ذلك . وحزن بنو النجار ورجوا أن تستقر معهم أشهرا . ولكنها اعتذرت لحين خروج القافلة الصغيرة .

وسمع الصبيان فحزنوا لفراق محمد ، وقد أحبوه ، وأصبحوا لا يطيقون البعد عنهم .

وأمسك به النابة ، ونظر إلى وجهه ، وكأنه يقرأ مستقبلا محتوما :

- ياولدى لقد تعلقت بك قلوبنا ، وقديما تعلقت قلوبنا بأهلك ، وأنت اليوم أعز عندنا مكانا فاعلم دائما أن لك أخوالا يرحبون بمقدمك ..

ورد محمد : لقد أيقنت يا خال أن دياركم دارى ، وأنكم أهلى وأن أبى فى أمان عندكم ، وقلبى معكم .

وعندما حان وقت رحيل القافلة الصغيرة ، أمدهم بنو النجار بكل الخيرات . وذهبت آمنة ومحمد ومعهما بركة أم أيمن وبنو النجار إلى زيارة قبر عبد الله .. فودعوه بنظرات دامعة..

طيف لا يغيب
فى قلب الحبيب ﷺ

لم تكن آمنة فى حياتها بأشد غبطة وسعادة كما كانت وهى ترحل عن المدينة راجعة إلى مكة ، لأنها أحست بفرحة محمد وهو يلعب مع الصغار والصبية أمثاله ، وشعر بالدفء والحنان والحب معهم ومع أخواله ، وأنه وجد الإبتسامة ترتسم على وجه أمه الأرملة . وقالت آمنة لبركة أم أيمن :

- عندما نعود إلى مكة سوف نقص على الشيخ الكبير عبد المطلب ما صنع لنا بنو النجار .. من حفاوة وتكريم واستقبال ومحبة .. وسيسعد بما لقى محمد منهم من محبة وإعزاز.

وقالت بركة : نعم .. نعم .. ولكن .. لقد عرف اليهود الذين كانوا مع القافلة .. محمدا ليلة أن عادوا .

قالت آمنة : وماذا قالوا يابركة ..؟

قالت بركة : قالوا إنه نبى .. كما جاء فى كتابهم .. وأخاف أن يتعقبه اليهود ..

قالت آمنة : لا تخشى شيئا يابركة .. .. فإنه محفوظ بعناية الذى يهتف لى بين حين وحين.

وساد الصمت ..

وتابع الركب مع القافلة الصغيرة . واشتدت حرارة الشمس فاحتموا بمظلة كانوا يحملونها مرة .. وينزلون يستظلون بشجرة وارقة الظلال مرة أخرى .

وأحسوا بالجوع ، فهبطوا إلى حيث حافة بئر ، وأكلوا مما حملوا وشربوا الماء . وكانوا يتبادلون الأحاديث ، وقد سرى عن أم أيمن بما رأت الطمأنينة على وجه آمنة .

وأتى المساء فاستراحوا . ثم إذا طلع القمرساروا مهتدين به وكانت آمنة فى حالة من السعادة والإنشراح .

وطلع الفجر ، وسطعت الشمس ، وسارت القافلة الصغيرة فى رحلتها حتى اقتربت من مكة فى بقعة تسمى " الإيواء " . وكانت حرارة الشمس قد اشتدت ، وشعرت آمنة ، بإرتفاع درجة حرارة الشمس قد اشتدت ، وشعرت آمنة بإرتفاع درجة حرارتها ، فطلبت آمنة أن ينزلوا " بالأبواء" حتى يستريحوا وقد شعرت بالإعياء ، وتحاملت على نفسها . وضربت بركة خيمة صغيرة ، وعاونها محمد على إقامتها . وما أن اكتملت الخيمة ،

حتى ازدادت آلام آمنة ، وشعرت بالسخونة ، وتقاطرت حبات العرق على وجهها . ثم شعرت بأطرافها تبرد ، وصاحت :

- محمد .. محمد ..

واقتربت منها أم أيمن بركة .. تسندها وهى تتألم ، وجرى محمد إلى أمه جزعا ، واحتضنها ملتصقا بها وهو يصيح ..:

- أمى .. أمى .. أمى ..

وازداد الألم على آمنة ، وارتفعت درجة حرارتها ، وتزايدت حبات العرق على وجهها ، وظلت بركة تجفف العرق ، وكذلك محمد ، والجزع يسيطر عليه ، والدموع تنساب من مآقيه وهو لايدرى .. فهذه أول مرة يرى فيها أمه على هذه الحالة ، ولايدرى ماذا يفعل ..؟ .. ماذا يفعل هو وبركة وقد تركهما افراد القافة الصغيرة فإن مكة على مسافة صغيرة من الإبواء ، لقد عجز محمد وبركة عن المعاونة .. وتجفيف حبات العرق الغزيرة ، وإرتفاع درجة الحرارة ارتفاعا كبيرا .. وعجزا عن النطق ، وتكلم الدمع ، وهو حيلة الضعيف اليائس ..

واعتدلت آمنة قليلا ، وأدنت محمدا منها ، وأشارت على بركة أن تقترب وقالت فى همس :

- إننى أموت .. وإننى لأترك محمدا وديعة عندك يابركة .. لقد كنت له من قبل أما فأصبحت الآن له الأم الوحيدة ..

وبكى المفجوعان .. ومسحت آمنة بخدها الدموع الجارية على خد محمد وهمست فى أذنه:

- تشجع يا محمد .. وكن صابرا .. وعش رجلا .. لا تخف ولا تجزع فكل الناس إلى هذا المصير ..

وما زال محمد يبكى .. والدموع تغسل وجهه ويقول :

- لاتتركينى يا أمى .. لا تتركينى يا أمى .. لا تتركينى يا أمى .

وظل محمد يحتضنها بكل قوة ، إنه فى السادسة من عمره وقد رضع اليتم ، ولم ير أباه . وظل فى الصحراء عند حليمة ثلاث سنوات بعيدا عن صدر أمه الدافئ الحنون . وعندما التصق بها .. وتراقصت دقات قلبه مع قلبها .. وارتشف الحنان فقد عوضته حنان الأب الذى لم يره ، ومات شابا فى المدينة . والآن .. ماذا يحدث ؟ كيف يعيش بعدها .. بعيدا عن حنانها .. وعن قلبها .. كانت هى حبه .. ودنياه ، وعالمه ، وأحلامه فإلى أين تذهب وتتركه .. وتتركه لمن فى هذه الحياة الواسعة العريضة ..؟ ولم يجد وسيلة إلا الدموع .. وصراخه ..

- أمى لا تتركينى .. أمى لا تتركينى ..

وابتسمت آمنة ، وأضاء وجهها نور ساطع وبرقت عيناها . . ثم أغمضت عينيها . وراحت فى سبات عميق ، وتوقفت نبضات قلبها ، وهدأ صدرها ، وانخفضت درجة حرارتها . وصعدت روحها إلى الخالق العظيم تاركة هذا اليتيم .. الذى يخرج من كهف اليتم .. إلى كهف يتم آخر يختبئ فيه ..

وصرخت بركة .. ورددت الصحراء الواسعة صرخاتها، وعاد الصدى يحمل لها اليأس .. ثم الصمت المخيف .. ثم صرخت .

- النجدة .. النجدة .. النجدة..

ولم يرجع إليها من صرختها إلا الصدى .

وهبط الليل ، واسودت الدنيا التى حولها وعوت الذئاب عن بعد ثم بزغ القمر ، وأضاء جثمان آمنة وهى لا تزال تشع جمالا وجلالا ونضارة وشبابا .. وكأن الموت لم يمسسها . ومحمد يضمها إلى صدره ويبكى حينا ويضع رأسه على صدرها فوق قلبها الساكن .. ويتطلع إلى السماء .

وعاد محمد ﷺ إلى مكة بلا حياة

وقام محمد وبركة ، فوجدا مكانا معلوما تقوم عليه شجرة ، ترمى بظلها ، فحفرا حفرة بقدر ما استطاعا وبزغ الفجر يبكى بدموع الندى على الراحلة . وحملت بركة ومحمد الجثمان الطاهر ، وأرقداه فى الحفرة وهالا عليه الرمل . واستودعاها حباب الرمل .. بعد أن بللت كل رملة ، وكل حصوة بدمع محمد اليتيم .

واستوت الأرض ، فأعليا عليها حجارة جمعاها من أطراف المكان . وجلس محمد على أطراف القبر ، وكأنه يناجى السماء .

أمى .. إلى أين ذهبت ..
وأنت نبع حبى ..
وكنت أحلم أننى سأرتوى منه طوال الحياة
بعد أن فقدت أبى ..

وأنا ما زلت فى بطنك الطاهرة ..

امى ..

ياحب الحياة .. وحب الحب ..

أنا الآن يتيم مرة أخرى ..

فاقد الحياة .. فى هذه الحياة ..

وعاد محمد وبركة إلى مكة .. بلا حياة

وجاء الشيخ الكبير عبد المطلب .. يتحامل على عصاه .. والدموع تنساب عل وجهه عندما علم بنبأ موت آمنة ، ومن ورائه جاء أبناؤه وأبناء أخوته وأهله .. وإنهم جميعا يبكون آمنة الفاضلة ، الطاهرة ، ويتجدد الحزن على فقيدهم عبد الله .. والد محمد .. ويبكون يتيما لم يهدأ من يتم فقده لأبيه ..

وقال عبد المطلب بعد صمت طويل ، والدموع تغسل وجهه ولحيته الطويلة :

- إنك يا ولدى قادم إلى دارى .. فما لك عيش فى هذا البيت .. لا أم ولا أب .. ولا لديك القدرة على حياة الوحدة القاتلة .. وإن بيتى وإن لم يكن يضم لك أما ، فهو يضم قلبا يحبك فوق ما تحب القلوب .. هو قلبى الذى تجمع فيه الحزن على أبيك وأمك فأصبح نبعا لحب كبير .. حبى لك ..

ثم نادى عبد المطلب :

- يابركة .. اعدى ثياب محمد وحاجياتك .. فسوف تكونين أما له .. وأختا له ..

قالت بركة : سمعا وطاعة سيدى .

وانفض الجمع ، وخرج الرجال ، وأخذت بركة تجمع الأشياء ، والدموع تنهمر من عينيها ، ووقعت فى يدها ثياب آمنة فدفنت رأسها فيها ، وبكت بكاء حارا . ومحمد واقف وقد كادت الدموع تجف من عينيه من شدة وكثرة البكاء ، ونظراته تجول فى أنحاء المنزل ، ويتذكر أمه ، وتوجه إلى بركة ، ودفن راسه فى صدرها وفى ثياب أمه ..

وجاء الرجال يحملون الأشياء ، ويقودون الدواب ومحمد يرقبهم فى ذهول وصمت . ويخرج هو أيضا .. وهو لا يعلم لم الفراق .. ومتى العودة ؟؟ ..وكيف تتأتى هذه العودة ..؟

دخل محمد ﷺ دارجده فلقى فيها هالة بنت وهيب أم حمزة . وتلقته لقاء هو أطيب وأكرم ما يكون اللقاء .. وجاءه حمزه يصافحه بود صاف ، وكأنه يقول : " إننى معك وإلى جوارك ، فى يتمك وفى طفولتك وفى شبابك " .

وإذا اشتدت شمس الظهيرة قصد ومعه حمزه إلى مجلس عبد المطلب فى ظلال الكعبة فيهش لهما عبد المطلب ، الذى يمد ثوبه ، ويقول له :

- اجلس يا ولدى .. إنك لأحب الناس إلى ..

وكان محمد ﷺ يستمع إلى احاديث جده عبد المطلب ، وينصت إلى احاديث الزائرين.

إنه صادق أمين ﷺ

ذات يوم جاء أعرابى من البادية ، وذهب إلى عبد المطلب وهو جالس فى ظلال الكعبة كعادته اليومية ، مع أصحابه ، ليكرم الضيوف الغرباء ، وقال الأعرابى :

- السلام عليكم يا عبد المطلب .. السلام عليكم يا أهل مكة .

ورد عبد المطلب ومن معه :

- السلام عليك..

- لقد سرقت فى داركم .. وسلبت مالى كله ، وكنت أضعه فى حزامى وأصبحت لا أملك شيئا من حطام الدنيا .

وتألم أبو طالب .. وسأله :

- وأين كنت تبيت يا أخا العرب ؟

- كنت أبيت فى العراء فى رحلى ..

- وكيف سرق منك المال ؟؟

- نمت والحزام معى .. وقمت فى الصباح أشترى طعاما ، فلما وصلت الى البائع .. تلمست الحزام فلم أجده وكنت أحمله فى ثيابى ولا أشده على بطنى .

- ألم تقع فى نفسك الريبة من أحد ..؟

وصمت الأعرابى قليلا ثم أجاب ..

- لا ..

- إذن فأنت فى ضيافتنا حتى نعثر لك على حزامك .. ومالك .. ونمسك بالسارق .. ولن تترك بلادنا ..

وتأثر الإعرابى لسماحه عبد المطلب . وجلس الرجل بجوار عبد المطلب . وكان محمد ﷺ جالسا كعادته بجوار جده .. وعندما سمع قصة الأعرابى ، فتذكر أنه كان يلعب مع الصبيان وقد عثر صديقه معاذ على حزام من الصوف ، وأنه قد أخفاه فى ثوبه ، فاعتقد محمد ﷺ أن هذا الحزام .. ربما يكون حزام هذا الرجل المسكين ، وقد سقط منه . فقام فى هدوء ، وسار إلى بيت معاذ ، ونادى عليه ، فلم يرد . . وأحس محمد ﷺ بحركة صبيان داخل الدار ، فتابع نداءه ، وأخيرا خرج إليه معاذ وأقفل الباب خلفه ، وسأله عن حاجته ، فقال محمد :

- لقد رأيتك تعثر على حزام ، فأين هو ؟؟

وتلعثم معاذ قليلا ثم أجاب :

- إننى لم أعثر على حزام ..!

- بل إنك عثرت على حزام وقد رأيته فى يديك ، كما رأيتك تدسه بين ثيابك .

- قلت لك إننى لم أعثر على حزام .. فاذهب عنى ..؟!!

- لن أذهب حتى تأتينى بالحزام .. فقد جاء صاحبه إلى جدى يطلبه .. وهو يبكى ويتألم.. والمال ماله .

- إذا لم تنصرف ضربتك ..

- اضرب كما تشاء.. ولكننى سأبقى حتى تأتينى بالحزام فنأخذه ونريه للأعرابى ، فإن كان له أخذه ..

وأمسك معاذ بمحمد وحاول الإعتداء عليه ، ولكن محمدا قاومه بشدة وصرخ معاذ ، فخرج من وراء الباب صبيان من رفقته كانوا مختفين ، وحاولوا أن يفضوا العراك ، وقال أحدهم لمحمد :

- يامحمد إنك رفيقنا وحبيبنا ، وقد عثرنا على مال .. فهو حلال لنا ولك فيه نصيب كأحدنا ..

ورد محمد ﷺ فى حزم ..

- إن المال مال أعرابى مغترب .. وهو ضيفنا .. وضيف جدى ولابد من إرجاع المال إليه .

وقال أحد الصبية

- كن عاقلا يا محمد .. إن المال كثير ونحن نستطيع أن نستفيد منه ، وما ضرك لو صمت ؟؟

- كيف أصمت وقد سمعت الرجل يشكو لجدى ، ورأيته يتألم ..؟

- تذهب إلى بيتك وغدا يرحل الأعرابى .. ثم نقتسم المال .

- أتدعوننى إلى الكذب وعدم الأمانة .. إنكم صبية ضالين ..

- وهل سألك أحد أن تكذب ..؟

- أليس من الكذب أن أصمت عن الحق ؟؟ وهل يليق أن أكتم شينا كهذا عن جدى الذى قال للأعرابى .. إنك لن تغادر بلادنا حتى نعثر لك على مالك .. ؟

وقال أحد الصبية الماكرين :

- لك نصف المال ثمنا لسكوتك ..

- وماذا ينفعنى المال وقد ضاعت أخلاقى .. إننى لا أطمع فى مال إذا كان مالا للغير.. وأنا أعرف صاحبه .. !! إننى إذن لسارق آثم ..

- إذن خذ كل المال .. واعطينا منه ما تشاء ..

- لا .. ولو أعطيتمونى اكثر منه ..

- إذن نضربك وتبتعد عن صحبتنا ..

- افعلوا ماتريدون .. ولابد من ارجاع المال لصاحبه .

وتكاثر عليه الصبيان ، وأخذوا يضربونه ، وتصايح الصبية ، حتى تكاثر حولهم بعض المارين ، وكان منهم بعض اهل محمد ، فخلصوه وحموه من الصبية ، ثم عرفوا قصة الحزام ..

وبينما هم فى نقاش حول الحزام ، إذا بالمنادى ينادى بصوت جهورى :

- **أيها الناس .. لقد ضاع لضيف لكم حزام فيه مال ، فمن أدى الأمانة ، فله الحمد والأجر ..**

وصمت الجميع ، وصرخ محمد :

- **أيها المنادى .. لقد عثرنا بالحزام والمال .**

وكاد الصبية يستأنفون العراك ، ولكن تكاثر الناس وسرعان ما جاء أعمام محمد ، وأرسلوا فى طلب عبد المطلب ، الذى جاء مسرعا ومعه الضيف . وأنكر الصبية وجود الحزام ولكن عبد المطلب قال لهم :

- إن ابنى صادق وأمين فإما أن تحضروا المال والحزام ، وإما القتال .. فالضيف لايسرق ونحن أحباء ..!

وخرجت من داخل البيت سيدة الدار وأم الصبى معاذ ومعها الحزام هاتفه :

- هذه امانتك يا عبد المطلب .. فلا قتال .. ولا عراك ..

واندفع الأعرابى ، وقد رأى الحزام ، وعرفه صارخا ..

- هذا حزامى ..

وأمسك به بعد ماله .

وتحول المتعاركون عن الشجار والصراخ إلى الصمت ، واتجهت انظارهم جميعا إلى محمد ..

وصاح الأعرابى :

- إن مالى كامل لم ينقص ..

ورد عبد المطلب ..

- لك مالك يا أخى .. وعلينا ضيافتك ..

وصاح صائح :

- إن لمحمدا أجرا ..

ورد محمد فى أدب :

- نحن لا نؤجر على أداء الأمانة يا والدى ..

وصاح صائح :

- إنه حقا لصادق أمين ..!!

- أجل إنه صادق أمين ..!!

وامسك عبد المطلب بيد محمد ﷺ وسار به بحفه التقدير والإعجاب حتى إذا ما دخل بيته ، احتضنته بقوة وعيناه مغرورقتان بالدموع وهو يقبله ويدعو :

- اللهم احفظه دائما صادقا أمينا .. يا محمد لقد رفعت عنى اليوم ذلا وأسديت إلى معروفا ، وملأتنى بك فخرا لتحفظك الآلهة يا ولدى الحبيب ..

وخرجت من داخل البيت سيدة الدار وأم الصبى معاذ ومعها الحزام هاتفة :

- هذه أمانتك يا عبد المطلب .. فلا قتال .. ولا عراك ..!!

واندفع الإعرابى ، وقد رأى الحزام ، وعرفه صارخا :

- هذا حزامى ..

وأمسك به بعد ماله ..

وتحول المتعاركون عن الشجار والصراخ إلى الصمت ، واتجهت انظارهم جميعا إلى محمد ..

وصاح الأعرابى :

- إن مالى كامل لم ينقص ..

ورد عبد المطلب ..

- لك مالك يا أخى .. وعلينا ضيافتك ..

وصاح صائح :

- إن لمحمدا أجرا ..

ورد محمد فى أدب ..

- نحن لا نؤجر على أداء الأمانة ياوعماه!!! ..

وصاح صائح :

- إنه حقا لصادق أمين ..!!

- أجل إنه صادق أمين ..!!

وأمسك عبد المطلب بيد محمد ﷺ وسار به يحفه التقدير والإعجاب حتى إذا ما دخل بيته ، احتضنه بقوة ، وعيناه مغرورقتان بالدموع وهو يقبله ويدعو :

- اللهم احفظه دائما صادقا أمينا . يامحمد لقد رفعت عنى اليوم ذلا واسديت إلى معروفا ، وملأتنى بك فخرا ، لتحفظك الآلهة ياولدى الحبيب .

***

اقترب محمد ﷺ من السيدة هالة بنت وهيب أم عمه حمزه وبنت عم أمه آمنة وسألها:

- هل أطمع فى خدمة منك تؤدينها إلى فأكون من الشاكرين ؟؟

وردت عليه فى حنان :

- كل ما تطلبه يا محمد مجاب ..

- هلا صنعت لنا حلوى أهديها لأم معاذ تقديرا لها .. ولعل الصبية الضالين يطعمون منها.

وردت هالة وهى فرحة :

- سأصنع لك حلوى كثيرة .. لم يذق أحد مثلها ..

وسهرت هالة وبناتها وأهلها يصنعون الحلوى فرحين . ونام محمد ليلته راضيا باسما . وفى الصباح الباكر حمل محمد الحلوى هو وعمه حمزة وغيرهما من أبناء عبد المطلب ، وقصدوا إلى بيت معاذ ، ودقوا الباب ، فخرجت الأم وإنتابها الخوف عندما رأت هذا الجمع ومعهم محمد ، وحسبت أن القتال سوف يتجدد ، وصاحت :

- ماذا جئتم تطلبون ؟؟

ورد محمد ﷺ ووجهه يشع منه النور ، باسم الثغر ..

- عمت صباحا يا أماه

- عم صباحا ياولدى

- لقد جئنا نهدى إليك حلوى صنعتها أمى.. وهاهى فطائر مسكرة ، شكرا لك على ما فعلته بالأمس ، ولعل معاذ ورفاقه باكون منها

وابتهجت أم معاذ .. وصاحت بفرحه:

- عشت يا ولدى .. وعاش جدك ، وعاشت أمك .. فإنكم يا عبد مناف أهل فضل ومروءة..

ونادت :

- يامعاذ ..يامعاذ.. تعال فهذا أخوك محمد جاء يسالمك ويصالحك وقد حمل إليك حلوى وفطائر..

وجاء معاذ ، وقد نسى شر الأمس ، وانمحى من نفسه الحقد والبغضاء ، وأقبل على الفطائر يلتهمها وهو يردد : " شكرا .. شكرا يا محمد " وهم يشكرون محمدا على صنيعه .. ويعاهدونه على أن يكونوا مثله أبناء صادقين ..

وتجمع أهل الصبية معجبين بمحمد وفضله وخلقه ، وعرض عليه بعضهم أن يعمل من أجلهم وأن يعمل فى رعاية أغنامهم مع الرعاة .. واتفق الصبية على أن يعملوا جميعا مع محمد فى رعاية الغنم . وعاد محمد مرة أخرى إلى الأغنام يرعاها.

وإذا الموءودة سئلت
بأى ذنب قتلت ..؟

بينما كان محمد ﷺ ذاهبا إلى جده عبد المطلب عند الكعبة ، انحرف عن الطريق ، ووجد نفسه فى طريق آخر .. ووجد رجلا يحفر فى الأرض وبجواره امرأة تبكى ، وتحمل بين ذراعيها وتحتضن طفلا مولودا يبكى .

وتقدم نحو الرجل وحياه ، فرد عليه الرجل تحيته فى اقتضاب ، واستمر فى حفر الأرض ، فتقدم إلى المرأة فحياها فى رقة ، فلم ترد تحيته ، لأنها كانت تبكى ، فكأنما يقف فى جوار من تذكره بأمه ، وتثير فى نفسه ذكرى حليمة مرضعته .

ووقف.. وكأن تسمَر فى الأرض ، وحاول السير ليعود إلى جده ، ووجد الرجل يصيح فى المرأة بعد أن إنتهى من حفر الحفرة .

- هاتها .

ولكن المرأة تحولت إلى تمثال ، وقد حضنت وليدتها بعنف ، ولم تتحرك ، فصاح فيها الرجل مرة أخرى ، وحاول محمد أن ينبهها قائلا فى رفق :

- ماذا يريد هذا الرجل منك يا أماه ؟؟
- إنه يريد هذه المولودة ..
- وبنت من هى ؟؟
- هى ابنتى وابنته
- وماذا يريد منها ؟
- يريد أن يدفنها ..
- وهل ماتت ..؟
- لا إنها بصحة وعافية .. وهى أول مولود لنا.
- إذن لماذا يريد دفنها وهى حية ؟؟
- لأنها بنت ..!!
- وماذا فى كونها بنتا ؟

وكان الرجل قد دهش من صمت زوجته ، وعدم طاعتها ، فتقدم إليها وسمع حديثها مع ذلك الصبى الوديع ، فقال له وكأنه يخاطب رجلا :

- ألست من أهل هذا البلد ..؟
- نعم .. ولكننى تغربت عنه طويلا ..

- ومن أنت ..
- أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

وعرفه الرجل وقال :

- أنت محمد الذى يتحدثون عن جماله وصدقه وأمانته ..
- نعم ..
- أنت ابن السيد ابن الأكارم من قريش ؟

وقال محمد ﷺ مستفسرا :

- ولماذا تريد أن تدفن إبنتك وهى حية ..؟

وقال الرجل متعبا ؟

- ألست تعرف عادة العرب يا بنى .. إنها بنت .. وما حاجتنا إلى البنات .. وهن لا يزرعن ، ولا يحاربن ، ولايرتزقن ..!!

وقال الرجل مندهشا من جهل محمد بالأمور :

- ولكنهن يجلبن العار والفقر ..!!
- وقد يجلبن الشرف والغنى ..

وصمت الرجل قليلا .. وظهرت عليه الحيرة ، ثم أراد أن يتحدث فقاطعه محمد :

- ألم تكن لك أم ؟؟
- نعم ..
- اليست هذه زوجتك ..
- نعم ..
- كيف كان يمكن أن تكون لك أم ، وأن توجد أنت ، لو كان ابوها قد دفنها ..؟

وكيف كان يمكن أن تكون لك زوجة ، لو كان أبوها قد دفنها ؟

وقد احتار الرجل عندما سمع كلام وأسئلة محمد ، وعجز عن النطق ، واحتار من كلام هذا الصبى ، وصاح ..:

- إنها عادة العرب ..!!
- إنها عادة سيئة ..
- إن الآلهة تقول ذلك ..
- وهل سمعت أنت الآلهة ..؟
- طبعا لم أسمعها ، ولكن الناس يقولون ذلك ..
- إن الناس يكذبون .. وإن الأولاد ذكورا وإناثا ليولدون لكى يعيشوا ، ويدفنون عندما يموتون .

وقالت المرأة لزوجها :

- ألا سمعت إلى هذا الصبى الجميل ، وكأنه هبط من السماء فى هذه الصحراء الموحشة.

وصمت الرجل ، وتابعت المرأة كلامها :

- ألست تقول إنه محمد صاحب الطالع الحسن . والبركة .. والصدق والأمانة ..

وتكلم الرجل ، وقال :

- نعم .. إنهم يقولون عنه ذلك ..
- إذن فلتكن بركته قد حلت علينا فلتحتفظ بمولودتنا ، وعسى أن تكون لنا خيرا ، وأن نرزق من أجلها رزقا حلالا ..

وصرخ الرجل :

- ومن أين الرزق لنا ونحن نبيت ليالى كثيرة ولا نجد طعاما .. كيف نطعمها ، ومن أين ؟

وقاطعه محمد :

- لعلها أيها الأب تكون سببا فى رزقك ، فاصبر عليها .. فإن الصبر جميل ..

ولكن الرجل تملكته روح الجاهلية .. وصاح فى وجه زوجته :

- أيتها اللعينة .. هاتى الطفلة ..

وخلص المولودة من يد الأم الباكية البائسة ، وارتمت على الأرض تبكى ، وفى لحظات القى الرجل بالبنت فى الحفرة بقسوة ، وأخذ يهيل عليها التراب ، وصوتها يزداد بكاء ، والأم تبادلها صراخا ، ومحمد يغطى وجهه من قسوة هذا المنظر. وانتهى الرجل من دفن الوليدة ، والأم راحت فى غيبوبة ، وارتمى الرجل على القبر ، وقد انبعثت فى قلبه روح الأبوة ، ولكن بعد أن لفظت البنت المولودة أنفاسها . وعندئذ تحرك محمد ﷺ مبتعدا عن هذا المنظر الكئيب .. عائدا إلى جده عبد المطلب ، والدموع تنساب من عينيه .

الحب الدافئ الذى غاب

بقى محمد فى كفالة جده عبد المطلب بعد وفاة أمه آمنة ، يرعاه ، ويهتم به ما يقرب من السنتين . وقد أشرف جده عبد المطلب على المائة عام . وعندما حان أجله أوصى بالنبى ﷺ إلى عمه أبى طالب يحفظه ويحوطه بالعناية لأنه كان شقيق عبد الله والد رسول الله ﷺ .

وقد سئل رسول الله ﷺ أتذكر موت عبد المطلب .

قال : نعم ، أنا يومئذ إبن ثمانى سنين .

وقالت حاضنته أم أيمن أمه بعد أمه : رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكى خلف سرير عبد المطلب ..

وكيف لا يبكى محمد ﷺ ، وقد فقد بفقده جده عبد المطلب سيد قريش ، وشريفها ، وهى فى طفولته التى هى فى أشد الحاجة إلى اليد الحانية ، والنفس العاطفة ، والقلب المشفق ، وكان قد لقى فى جده كل ذلك وأكثر .. الشخص الذى ملأ فراغ الأبوه والأمومة من حياة محمد ﷺ فى هذه المرحلة التى تتغذى فيها الطفولة بالعواطف الصادقة .

إن حياة عبد المطلب كانت فى هذا الدور من حياة محمد ﷺ المهد الدافئ ، المظلل بظلال الأبوة الرحيمة ، والأمومة الدافئة وقد أنزله فى نفسه منزلا لم ينزله أحدا من ولده ، يحوطه بحبه ، وبعطفه ، ويقدمه على بنيه ، ويلازمه ، فلا يفارقه فى سفر أو إقامة ، لينسيه ألم اليتم ، ويمسح عنه الأحزان .

إن هذه الدموع المنحدرة من عينى محمد ﷺ ، وهو يودع جده العظيم فى سفره الأيدى آيات من كتاب الوفاء متمثلة فى دموعه الغزيرة ، وكأنه كان يودع أمه يوم وفاتها فى " الأبواء " .

ووقف محمد ﷺ أمام جثمان جده ، والدموع تغسل وجهه الجميل ، وكأنه يتساءل .. أين أبى عبد الله الذى سمعت عنه ولم أره ..؟ وفقدته قبل أن أدفن رأسى فى صدره ، وأملك حبه وعطفه ورعايته..؟ وأين حليمة الأم التى رعتنى ، وسقتنى وغذتنى ، وملأت قلبى حبا ، ونفسى سعادة ..؟ أين زوجها الحارث الرجل الكريم العطوف الذى أشعرنى بعطف الأبوة وحنانها ..؟

أين أخى عبد الله وأختى شيماء فى الرضاعة ، وأين رفاقى وزملائى فى الوادى والمرعى .. إن بينى وبينهم صحراء واسعة ..

أحبهم ، وأذكرهم .. وأنا منقطع عنهم لا أرهم ولا يرونني ، أين ثويبه المرضعة التى سقتنى لبنا وحبا .. فأنا حر وهى من الرقيق ..

أين آمنة أمى التى رأيت من حنانها وحبها الحياة حلوة ، وأخيرا .. أين عبد المطلب الذى غمرنى بحبه ، وعطفه ، وحنانه أين هذا الرجل الذى علمنى مجد آبائى وأجدادى ..؟

وأدركت منه عبرة الدنيا .. وهى أنها دار صلاح وتقوى ، وإيثار وسلام وحب ، وعرفت منه أن المال فان ، والجاه زائل ، وأن الباقى هو الصالح من الأعمال والأقوال..؟

وظل محمد ﷺ يناجى نفسه ، ودموعه لا تنقطع وتغسل وجهه ، وأم أيمن ترده عن فراش عبد المطلب ، فينفلت منها عائدا إلى الفراش ، منشبثا بهذا الجثمان الساكن لعله يعود مرة أخرى إلى الحياة ..؟ نفس المنظر الذى عايشه مع جثمان أمه آمنه ..

وجاءت لحظة الدفن ، فحمل عبد المطلب من فراشه ، وأحس محمد ﷺ بأنخلاع قلبه ، وهم يحملون جثمان جده الكريم ..

وبلغ الركب منطقة " الحجون " حيث اعدت مقبرة آل هاشم لتضم جثمان عبد المطلب . وكان الجميع يبكون ، ومحمد ﷺ .. تموت نفسه ألما ، وحزنا ، ولوعة ، على هذا الحب الدافئ الذى غاب عنه فى التراب ..!!

وانكسرت احلام محمد ﷺ

بعد موت عبد المطلب جد محمد ﷺ .. انكسرت احلام محمد ﷺ التى كانت تملأ نفسه بالأمل فى الحياة ، وهو يعيش يتيما .. فاقدا للحنان بعد موت أمه آمنة ، وقد تفتحت عيناه على اليتم ، ولم ير حنان أبيه عبد الله ، الذى مات وهو فى بطن أمه . ثم رأى الدفء فى حنان جده عبد المطلب الذى كان يرعاه بحب شديد ، وكان يفضله على أبنائه، ويتبارك به ، ويجلسه بجانبه فى ظل الكعبة ، ويفتخر به .. لأمانته ، وصدقه ، ورجولته المبكرة وهو لم يتجاوز الثامنة من عمره . وتزاحمت الأفكار والأسئلة على ذهن محمد ﷺ .. أين يذهب الآن..؟ .. هل يذهب إلى بيته الذى ولد فيه ، ويعيش مع بركة أم أيمن ..؟ أم يذهب إى بيت عمه عبد المطلب ، وقد خلا من الحبيب الحنون جده عبد المطلب .. ومن الذى يحتمله ويقوم على إطعامه وكسائه وتوفير عيشته ..؟ !!

أم ينفذ الوصية التى سمعها من جده المحتضر لأبنه أبى طالب بأن يضم إليه محمدا..؟

أم يذهب إلى بيت أبيه عبد الله ، وليس فيه إلا الوحدة والفقر ..؟ .. ولكن هاتفا فى نفسه ، دعاه إلى أن يذهب إلى بيته ، وأنه يستطيع أن يعمل ، ويكتسب رزقه .. ويعمل راعيا لأنه يعرف كيف يرعى الغنم ، والإبل ، و الدواب . ويعرف كيف يسقيها ، وكيف يجمع لها العشب ويطعمها أو يعرف كيف ينظفها ، ويخرجها من حظائرها ويدخلها إلى الحظائر . وأخيرا أطمأنت نفسه التى هدته إلى الذهاب إلى بيته ، وما ان اقترب منه حتى رأى نور السراج يضئ ، ففرح لأنه عرف أن بركة ما زالت موجودة به .

فانـدفع إلـى داخـل الـدار ، فـإذا أم أيمـن تهـب واقفـة والفـرح يمـلأ صدرها ، واحتضنته ، والدموع تنساب من عينها قائلة :

- أين كنت يا ولدى فى هذا الليل ..؟

وصمت محمد ﷺ .. وقالت :

- لقد بحثنا عنك فى كل مكان ، وبحث عنك عمك أبو طالب وجاءت زوج عمك فاطمة وهى ملهوفة عليك ، وقد أعدت لك طعاما .

وقاطعها محمد ﷺ :

- يا أماه .. ألا ترين أنه خير لى ولك أن نبقى فى بيتنا ، نعيش على ما نكسبه من الرزق ، وندع عمى وزوجه لعيالهما .. ويكفيه أن يرعاهم وهو فى أشد الحاجة إلى المساعدة.

فقالت له :

- يامحمد .. إن جدك عبد المطلب الذى كان يحبك كل الحب ، قد أوصى .. ولا بد أن ترضيه فى كبره باحترام وصيته إن وفاء الأحياء للأموات هو أشرف ألوان الوفاء وإلا قال الناس عنك أنك لا تستجيب لوصية جدك ..

وما أن سمع محمد ﷺ كلمة جده مقرونة بكلمتى الطاعة والوفاء .. حتى وافق على ما قالته بركة (أم أيمن) وفى تلك اللحظة سمع صوت عمه أبى طالب ، وهو يقول :

- اعندك نبأ يابركه عن ولدى محمد ..؟

- ها أنذا يا ابت !!

ودخل ابو طالب متهللا ، مستبشرا ، وقد أضاءت الفرحة قلبه ، وأسرع إلى محمد يحتضنه بشوق ، وأسرع إليه مرتميا فى أحضانه .. وطال احتضان العم الذى كان يحب ابن أخيه عبد الله ، بمجموع حبه لأخيه وفجيعته فيه ، وحبه لأبيه عبد المطلب .

وطال احتضان اليتيم وتشبثه بعنق عمه أبى طالب ، فقد وجد فى حضن عمه دفء الحنان الذى يفتقده كثيرا .. والحب الذى تذوقه من الحاضنين ، اللتين حاولتا أن يشعرانه بالحب بعد فقده لأبيه وأمه .

وجاءت فاطمه زوج أبى طالب ، ورأت مشهدا جميلا ، رأت زوجها وقد جمع جسد أبن اخته الصبى ، وكأنه يدسه فى أعماقه حتى لا ينفصل عنه ، وقد أشرق وجهه بسعادة فياضة ، وبلل وجهه دمع هو مزيج من فرح وحزن . ورأت الصبى اليتيم الجميل، يلف ذراعيه حول رقبة عمه ، وكأنه يتشبث بها من مخاوف المستقبل واليتم ، والفقر ، ولكنها كانت حكمة الله التى لايدركها انسان . وما أعظم آياته ، وعظاته ، وانه كان يعده ليكون رحمة للعالمين ، وليكون قدوة للبشر أجمعين . فمن هذا اليتم .. تنبثق الأنوار لهداية الناس على مر الزمان ، وتحمله الرسالة لعبادة الواحد الأحد ، خالق الكون والبشر.

وإنها لإرادة العلى القدير أن يبكى اليتيم الخالد، وأن يتألم ، وأن يتعذب ، ويتألم من حوله ويتعذبون .. لكى يدخل الدنيا من باب الألم والأحزان والشقاء ، ليشيع فى النفوس البشرية السعادة ، والحب .. لأنه

أصبح ينبوع الحب الذى ترتشف منه الإنسانية السعادة ، والراحة ، فى حب إله الحب اللانهائى .

يوم زفاف اليتيم الحبيب

لقدمر اليتيم محمد ﷺ ، فى طفولته وصباه ، وبداية شبابه بآلام ، ومحن كثيرة ، وكان يلوذ بالصمت ، ويغسل نفسه بالدموع ، لإحساسه بافتقاده الحنان والحب .. بعد أبيه الذى مات فى شبابه ولم يره محمد ﷺ ومن حنان أمه التى فقدها ، وهو فى السادسة من عمره ، وشهد موتها بين يديه ، وساعد بركة أم أيمن فى دفنها .. ومهما حاول جده عبد المطلب ، وعمه أبو طالب أن يمنحاه الحب ، والدفء ، والحنان ، فلن يكون .. مثل الحنان الإلهى فى صدر أمه آمنة بنت وهب .

وكبرمحمد ﷺ .. وقد طحنته المحن ، والآلام والأحزان ، فأصبح حديث قريش ، وأصبح الأمين ، الصادق ، صاحب الحكمة ، والإخلاص ، والوفاء ، فقد أدبه رب العالمين .. ليكون نبع الحب فى الوجود ، وليتحمل الرسالة التى كلفه بها الله سبحانه وتعالى ، ليكون رحمة للعالمين .

وعمل بالتجارة ، واختارته خديجة بنت خويلد ليتاجر فى اموالها ، فنجح نجاحا باهرا ، أذهل الجميع ، واختارته خديجة ليكون زوجا لها ، رغم أنها رفضت كباررجالات قريش ، أصحاب المال والجاه ، والسلطان .

وفى ليلة الإحتفال بزواج محمد ﷺ بخديجة ، واجتمع جميع أفراد عائلته بقيادة عمه ابى طالب ، ليكونوا بجوار محمد ﷺ ليلة زفافه .

وكـان محمـد ﷺ يسـتعد ليـوم الإحتفـال بزفافـه ومـرت بـه الخـواطر والأحـلام ، وكأنـه يـرى أبـاه عبـد الله ، فرحـا بهـذا الزفـاف ، ويحتضـنه ، ويقبله .. قبلة الأبوة الحانية .

وطـارت بـه الأحلام إلـى " الأبـواء " حيث نمـت الشـجرة التـى يرقـد تحتها الجسد الطاهر أمه آمنة . وتخيل أمه ، وقد استيقظت فرحـة ، تخـف إلـى احتضـان وليـدها محمـد ﷺ فـى حـب ، وفـرح . وتخيـل أنـه ارتمـى فـى احضـانها ، وشـعر أن الـدنيا كلهـا تحوطـه بـذراعيها المشـبعة بالحنـان ، والحب .

وكأنه يقول لأمـه .. إننـى كنت أتمنـى يـا أعظم الأمهات .. ويـا أكرم البطـون أن تكـونى معـى فـى هـذه اللحظـة الهامـة فـى حيـاتى ، وتحـدثينى ، وتهدينى الطريق إلى شريكتى خديجة.

وكأنه يسمع صوتها وهى تقول له .. سر على بركة الإله .. فخديجـة ستكون اما حانيـة عليك ، وأختـا عطوفـا ، صـادقة الحـب ، أمينـة العهـد ، وحليلة وفية قد أعدها الله لك ، وهيأها لأحلامك وأيامك ..

واختفت آمنة كأنما هى ملاك من نور ، سطع بالأمـل ، ولكنهـا كانـت روحا طاهرة.

وعاد محمد ﷺ .. بخياله إلى جده عبد المطلب ، فرآه فى قوة وعليه هالـة مـن جمـال الأبطـال .. وكأنـه يقـول لـه " إننـى معك يـا بنـى سـأركب فـى عرسك حصانى ، واننى معك يا بنـى.. والسعادة تمـلأ قلبـى .. وأن أبنـى أبـو طالب شقيق أبيك عبد الله .. حاضر حفل زفافك .. وأفراحك ..

وطاف خيال محمد ﷺ بأحبابه وأصدقائه . وإخوته فى الرضاعة .. الذين أحبوه، ورعوه ، وأكرموه ، ورحموه .. إنهم حليمة ، وزوجها الحارث أبو ذؤيب ، والشيماء وعبد الله .. إخوته فى الرضاعة .. وكان يتمنى أن يشهدوا كلهم حفل زفافه ..

لحظات مع الخيال ، والأحلام ، والرؤى ، طافت بصدر محمد ﷺ وسلم ، وازدادت دقات قلبه من الفرحة ، وانسابت دموعه ، فغسلت وجهه الجميل الصبوح ليلة فرحة . لتبدأ حياة جديدة مليئة بالحب ، والحنان ، والآلام والصعاب أيضا ..!!

ياحبيبى يارسول الله ..
ياخير الأنام .. وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .
يامن بعثت لتكون نبيا للحب ..
يرتشف منه البشر أصفى وأنقى ما فى الوجود الحب ..
فى قمة صورته ..
يامن اختارك الله سبحانه وتعالى
من جوف الصحراء لحكمة بالغة ..
واصطفاك من بيئة الأصنام لتكون هاديا للبشرية جمعاء
كل شئ فى هذا الوجود يشدو
يامحمد
وينادى فى حنان
يامحمد
أنت فى الشرق بقاء وخلود
أنت فى الكون وجود للوجود

ياحبيب الرحمن ..
وشفيعنا يوم القيامة والفرقان ..
هو فى الجسم بشر..
وهو نور فى البصيرة والبصر ..

الحمد لله ...،،
فتحى الإبيارى

رقم الإيداع :

مؤلفات فتحي الابياري

كتب في الفكر الإسلامي

•السيدة نفيسة رضى الله عنها	منتصر للنشر	١٩٨٩
•في ضيافة الرحمن	دار الصفوة	١٩٩٢
•موسوعة المحمديات	ج١ هيئة الكتاب	١٩٩٤
•موسوعة المحمديات	ج٢ هيئة الكتاب	١٩٩٥
•موسوعة المحمديات	ج٣ هيئة الكتاب	١٩٩٥
•موسوعة المحمديات	ج٤ هيئة الكتاب	١٩٩٦
•موسوعة المحمديات	ج٥ هيئة الكتاب	١٩٩٨
•المرأة في القرآن الكريم	تحت الطبع	
محمد (ص) نبع الحب	تحت الطبع	
•محمد صلى الله عليه وسلم	هيئة قصور الثقافة	٦٦-٩٨- ٢٠٠
•طيف لا يغيب	مطبوعات نادي القصة بالإسكندرية	

رحـــلات

•رحلة الأحلام في عالم الأساطير	طوكيو
•رحلة الأحلام في عالم العجائب	تايلاند
•رحلة الأحلام في عالم الغرائب	هونج كونج
•رحلة فوق الأمواج	مواني البحر المتوسط
•أوراق طائرة في أوروبا الحائرة	عواصم أوروبا

•مغامرات ابن الابياري في العالم الأمريكاني	أمريكا

دراسات نقدية وأدبية

•محمود تيمور وفن الأقصوصة العربية	ط١ دار المعارف	١٩٦١
•فن القصة عند تيمور	ط١ دار المعارف	١٩٦٤
•عالم تيمور القصصي	ط٢ هيئة الكتاب	١٩٧٧
•عالم تيمور القصصي	ط٣ هيئة الكتاب	١٩٩٤
•الجنس والواقعية في القصة	هيئة الكتاب	١٩٦٦
•أدباؤنا والحب	ط١ دار الشروق/ط٢ دار المعارف	٧٣ /٩٥
•نبضات القلوب وأدباء الأقاليم	دار الشعب	١٩٧١
•عشرة آلاف خطوة مع الحكيم	هيئة الكتاب	١٩٨٧
•الأم في الأدب	ط١ الدار المصرية	١٩٦٦
•الأم حكايات وقصص	ط٢ كتاب أخبار اليوم	١٩٧٠
•الأم حكايات وقصص	ط٣ هيئة الكتاب	١٩٩١
•الأم حكايات وقصص	ط٤ هيئة الكتاب	١٩٩٤

روايـات

•رحلة خارج اللعبة	ط١ مطبوعات عالم القصة	١٩٧١	
•رحلة خارج اللعبة	ط٢ هيئة الكتاب	١٩٨٢	
•رحلة خارج اللعبة الترجمة الإنجليزية	هيئة الكتاب	١٩٩٢	

•أرنب كالآخرين	تحت الطبع	
•رحلات حب سرية	مجلة الثقافة	١٩٧٨
•رحلة ٤٦ رحلة حب	مطبوعات المستقبل	١٩٩٢
•ميريلاند	تحت الطبع	
•الديك	تحت الطبع	

كتب عن المؤلف (الأديب الكبير فتحي الايارى)

•فتحي الابيارى .. (رؤية نقدية)	مطبوعات عالم القصة	١٩٨٩
•فتحي الابيارى .. (الحب المرأة الحياة)	ملاك ميخائيل	١٩٩٦
••فتحي الابيارى .. رائد الصحافة الإقليمية	مطبوعات نادي القصة	١٩٩٦
•فتحي الابيارى .. (الفكرة المائية المتدفقة)	ملف خاص بمجلة الثقافة الجديدة هيئة قصور الثقافة	١٩٩٨
•فتحي الابيارى .. (الفطرة والإصرار)	مطبومات نادي القصة محمد محمود صد الرازق	٢٠٠٠

•• كتاب (فتحي الابيارى رائد الصحافة الإقليمية) .. تسجيل للبرنامج التلفزيوني (رواد) الذي تم عرضه بالقناة الخامسة على مدى ثلاثة ساعات.